نهاية الأسرة السورية

في أثناء حكم هيليوجاباليس وفي السنوات العشر الأولى من حكم الاسكندر ساد السلم على الحدود الفارسية. فقد كانت هنالك مشكلات داخلية ملحة تستدعي اهتمام أرطبان وفولوجاسيس ليس بسبب نزاعهما الأخوي فحسب، بل بسبب تلك الاضطرابات التي بدأت تجمع شتات قواها شيئاً فشيئاً، وتشتد بين الرعايا الفرس. وكان قائد هذه الاضطرابات يحمل اسماً محبوباً ومحترماً في التاريخ الفارسي، وهو اسم ارداشير Ardashir ويطلق عليه اسم ارتزرسيكيس Artaxerxes باليونانية. وقد ناشد هذا الرجل الروح الوطنية والشعور الديني في شعبه فاجتذب إليه قسماً كبيراً متزايداً من الجماهير التي دعمته وأيدته ولاسيما في تلك الولاية الواقعة على الشاطئ الشرقي للخليج العربي، وهي القلب الذي خرجت منه جحافل الإمبراطورية الفارسية القديمة التي حطمها الاسكندر المكدوني. وقد ساعد الخصام الذي ساد بين الأخوين على نجاح حركة هذا القائد الشعبي الذي كسر كلا الأخوين كلاً بدوره، وأُعلِنَ ملكاً على بلاد فارس، وأَعْلَنَ عن عزمه على إحياء الحقوق والقوى العظمى التي كانت تتمتع بها تلك الدولة والتي خسرتها منذ قرابة خمسمئة عام عند موت داريوس آخر ملوك تلك الأسرة القديمة. وأعلن عن عزمه على التقيد التام بالدين القومي الذي أسسه النبي زرادشت والذي لاقى الإهمال من جراء فتور الشعور واللامبالاة التي كانت صفة من صفات الملوك الفارسيين. وقد اشتهرت الأسرة التي أسسها هذا الملك بالأسرة الساسانية وهي مشتقة من اسم والده ساسان.

لقد كان هذا الملك بحاجة إلى بعض الوقت لترجمة ادعاءاته وطموحاته إلى حقائق. إذ حتى بعد موت فولوجاسيس، نرى أن أبناء الملك الأول استمروا في المقاومة في أرمينيا وفيما وراء بحر الخزر، ولم يُقْضَ على آخر جيب من جيوب المقاومة إلا بعد عام 230 وعندها أصبح أرداشير حراً في توجيه اهتمامه إلى الغرب. فقد امتدت إمبراطورية داريوس القديمة حتى ساحل بحر إيجه وآسيا الصغرى. وعمد كثير من الفاتحين إلى احتلال تلك المنطقة أثناء الخمسمئة عام الماضية وكان آخرهم الرومان. وهكذا عمد أرداشير إلى المطالبة بإرثه، فقاد جيشه عبر نهر دجلة إلى ولاية ما بين النهرين الرومانية.

أخذ الرومان على حين غرة، فقد كانت منطقة هادئة وآمنة مدة طويلة بحيث لم تحضر أي خطط لرد أي اعتداء. ويؤكد (ديو) أن النظام كان رخواً ويقارن ذلك بالإجراءات الصارمة التي كان قد اتخذها عندما استلم القيادة في الدانوب مع الحالة المنحلة والتي سادت في صفوف الجيش في الجبهة الشرقية، ومن المحتمل أن هذا الرجل كان مبالغاً في أقواله بسبب رغبته في مدح نفسه. فهنالك شواهد عن حدوث تمرد في ايديسا Edessa قتل فيه قائد الجيوش الرومانية، ولكن الرجال الذين اشتكوا من هذا القائد نقلوا إلى مناطق حدودية أخرى، حيث استأنفوا خدمتهم العسكرية دون أي تذمر أو شكوى، فالحوادث المحلية من هذا النوع لم تكن لتخلو من صفوف الجيش الروماني الذي كان في حالة هدوء دون وجود أي مناوشات أو أعمال حربية خارجية تعمل على إشغاله.

ومهما كانت الأسباب فقد نجح الفرس في اختراق الدفاع الروماني، وعندما وصلت أخبار الغزوة الفارسية إلى روما أصيب الإمبراطور الاسكندر بالذعر، فلقد كان هذا الرجل رجل سلم محباً للهدوء والراحة والولع بالدراسة والجد ولم تجذبه الحروب.

وكانت والدته تقاسمه تلك المشاعر. أرسل مبعوثاً إلى اردشير لتذكيره بالقوة الإمبراطورية العظيمة للرومان وبالانتصارات الكثيرة التي أحرزوها ضد الفارسيين ولتقديم عروض بالانسحاب من المناطق المحتلة. ولكن أرداشير رفض تلك الطلبات ورفض المصالحة.

فلم يكن ملكاً فارسياً بل ملكاً لفارس. وقد ساعد نجاحه في القضاء على النظام البارسي الذي دام عدة قرون في إدخال الزهو والثقة إلى نفسه والهمة والطموح الذي التهب مما أصابه من حماس وتعصب قومي. فقد تخيل أنه أصبح البطل الذي أرسله أهورمزدا وهو إله الخير الأعظم في الديانة الفارسية للانتقام لتلك المظالم القديمة وللقضاء على قوى اهريمان إله الشر وبعثرتها شذر مذر، وكانت قوى إله الشر هذه تمثلها الجيوش الرومانية. بدأ في العمل بقوة كمهمة إلهية تشجعها إمكانية النهب والسلب في المنطقة، فاحتل الأراضي الواقعة بين دجلة والفرات وهدد الولاية الرومانية المجاورة وهي ولاية سوريا.

بدأ الاسكندر يعد عدته للحرب بعد أن انتابه الأسى والأسف ولكنه صمم على العمل أخيراً، فأخذ يجمع الجنود من إيطاليا والولايات الأخرى. وعندما أصبحت لديه قوة كافية ذهب بنفسه لاستعراض ذلك الجيش الذي وقف في عرض عسكري خارج مخيمات الحرس البريتوري في روما. ويدعي أحد المؤرخين المعاصرين أن الاسكندر ألقى خطاباً أمام ذلك الجيش وذلك طبقاً لعادات المؤرخين القدماء ولكن هذا الخطاب كان من نسج خيال المؤلف، فقد احتوى الخطاب على بعض العبارات التي تشرح موقف الإمبراطور بالنسبة للحرب فهو يخبر الجنود كم كانت الحرب غير ملائمة لطبيعته ومزاجه، وكم كان يحلو له لو أنه يخاطبهم في مناسبة سلمية كما اعتاد أن يفعل، ومع ذلك فهو

يضيف: «على الرجال الشجعان أن يأملوا بالأفضل ولكن عليهم أيضاً أن يتصرفوا حسب الأحوال الراهنة وطبقاً لها»، فالحرب كريهة ومكروهة ولكن هنالك ظروف تصبح فيها الحرب واجباً ضرورياً. وقد ذكرهم أنه قد عمل كل ما في وسعه لتجنب الخصام بإرسال كثير من المبعوثين لإثناء اردشير عن عزمه الذي أضاف إلى جريمة قتله ملكه وولي نعمته جريمة أخرى وهي الاعتداء على الأراضي الرومانية. ولقد كانت تلك الكلمات موجهة لإذكاء نار الحماس في سامعيه أكثر من إقناعه بتغيير طبيعته المسالمة. ومع ذلك فقد كان يعمل طبقاً لمشورة مستشاريه العسكريين، ثم عين ضابطاً مقتدراً ممتازاً والياً على سوريا المهددة، ثم دعم القوة البحرية لسحق القراصنة الذين انتهزوا فرصة ضعف الإمبراطورية الرومانية فأصبحوا يزعجون المواصلات البحرية وهددوا عمليات نقل الجيوش والمؤن. وعلى الرغم من افتقار الاسكندر للخبرة العسكرية، إلا أنه اتبع خطط الأباطرة الماضية وذلك بأن رافق الجيوش من اللحظة التي خرجت فيها من روما حتى مركز العمليات العسكرية.

وقد اصطفت الجماهير على جانبي الطريق لمراقبته وهو يرحل إلى ساحة القتال. إذ إن أخلاقه الدمثة حببته إلى الجمهور وقد مضى وقت عليه في الحكم تعرف عليه الشعب وأحبَّه. وبكى الكثيرون لما رأوه خارجاً من روما كما أنه التفت إلى الخلف وبكى أيضاً وهو يتساءل فيما بينه وبين نفسه فيما إذا كان سيرى ذلك الشعب مرة أخرى أم أنه لن يراهم أبداً. أما أمه التي كانت محمولة على محفة تسير إلى جانبه فقد حافظت على وقارها، كانت تكره الحرب بقدر ما كان ابنها يكرهها، ولكنها قررت الذهاب معه وليكن ما يكون.

سار الإمبراطور وجيشه حول رأس خليج الادرياتيك وبعدها عبر شبه جزيرة البلقان إلى تراقيه والبوسفور، ثم نزولاً عبر آسيا الصغرى إلى أنطاكية حيث وصلوا إلى هناك في صيف عام 231م. قرر الإمبراطور أن تكون أنطاكية مركز قيادته بينما أُكْمِلَتْ الترتيبات النهائية للحملة وبقيت ماميه مشغولة أثناء إقامتها هناك. فقد كانت هنالك قضايا سياسية تحتاج أخذ رأيها، بينما كانت الشؤون العسكرية من اختصاص القادة والضباط الذين معها. ووجدت لديها الوقت الكافي لمقابلة أوريجين Origen كما ذكرنا في الفصل الماضي، ووجدت في محادثاتها معه ملاذاً ونوعاً من التحول من شؤون الحرب الكريهة إلى حالة التأمل الروماني بالفضائل الأبدية.

ويعد إكمال الاستعدادات العسكرية نهائياً قام الاسكندر بإجراء مفاوضات ومحاولة أخيرة لإحلال السلام، وهو يأمل أن يصبح أردشير في حالة عقلية أفضل بعد أن سمع بقدوم الإمبراطور بنفسه على رأس جيش لجب، ذلك الإمبراطور الذي يحمل اسم الاسكندر الذي كان الخطر الأعظم المميت الذي أصاب الإمبراطورية الفارسية القديمة. وقد أرسل مبعوثين لاقتراح إيجاد حلف بين روما وبلاد فارس. وعادت الرسل ومعها رسالة تقول إن الرسل الفرس سوف يأتون

حالاً ومعهم الجواب، ولكن لم يكن هنالك شيء مشجع لاسيما في مظهر ممثلي أردشير الذين أتوا إلى أنطاكية وعددهم أربعمئة وكلهم أقوياء من الحجم الكبير، طوال الأجسام يلبسون أفخر الملابس ويركبون الخيول المطهمة وهم مسلحون بالأقواس والنُّشَّاب، وقد أعلنوا أنه ليس هنالك من مجال للسلام حتى تعيد روما إلى الملك العظيم المرزبانات (ويقصد بها الولايات الفارسية وكان الوالي الفارسي يدعى مرزبان) التي كانت تابعة للإمبراطورية الفارسية والتي تشمل سوريا وشواطئ بحر إيجه الآسيوية التي سرقت من جده وسلفه داريوس. وقد أثار طلبهم هذا الغضب والحنق في الجيش الروماني بحيث حاول الجنود الرومان الاعتداء على الرسل الساسانيين لولا تدخل الإمبراطور الذي اعتبر الإبقاء على حياتهم من الواجبات الدبلوماسية التي يجب إتباعها، ولكنه أثبت كرامة روما بأن نزع عنهم تلك الملابس والأبهة التي بدوا فيها، وأرسلهم إلى القرى في فريجيا للعمل في الحقول.

وهكذا شرع الجيش بالمسير في حملته دون تأخير وكانت الخطة الهجوم على الجيش الفارسي من ثلاث جبهات، فالكتيبة الأولى تتقدم باتجاهٍ شمالي عبر جبال أرمينيا حيث كان لا يزال هنالك فئة من المؤيدين للقضية البارثية والمتحالفين ضد الساسانيين. أما الكتيبة الثانية فقد اتجهت جنوباً نحو نهر الفرات وبعدها تسير إلى أسفل النهر في القوارب حتى النقطة التي يتصل بها نهر الفرات بنهر دجلة، وأما القسم الثالث من الجيش وهو القسم الأكبر الذي كان يقوده الإمبراطور بنفسه، فقد اتبع الطريق المباشر بين الجيشين المذكورين متوجهاً عبر الصحراء إلى (الحرة) هطره Hatra وهي المدينة التي قاومت سبتموس في حروبه ضد بارثيا، والتي أصبحت الآن في صف الرومان ضد الفرس، وكان القصد من هذا الهجوم تقسيم الدفاع الفارسي وإضعافه، وبعد ذلك تجمع الجيوش الثلاثة وتتقدم رأساً إلى قلب العدو محدثة الانهزام الساحق به.

سار كل شيء على ما يرام حسب الخطة الموضوعة أصلاً. فالكتيبة الشمالية تقدمت تقدماً ملحوظاً عبر الجبال على الرغم من صعوبة السير، وكان حالهم أفضل من حال الفرس، فقد كان الجنود الرومان يسيرون مشياً على الأقدام بينما الفرس ركبوا الخيول وهذا أعاق حركتهم، إذ لم يمكنهم ذلك الوضع من الهجوم عبر الوديان والصخور. وقد قاسى الفرس من نكسة أخرى وهي وصول القوات البحرية التي نزلت إلى نهر الفرات ووصلت البحر وقد كان مسقط رأس أردشير في مكان قريب على الشاطئ لذلك سحب عدداً من جنوده للدفاع عن ذلك المكان ضد الجيش الروماني القادم من البحر، وهكذا ترك الدفاع ضعيفاً في الشمال وعندما رأى الرومان انسحاب العدو اعتبروا أن الكتيبتين قد وصلتا إلى وجهتهما المقصودة وأن الخطة قد نجحت، ففترت همتهم ونزلوا إلى وادي نهر دجلة حيث أشغلوا أنفسهم بالنهب والسلب.

ولكن ثقتهم هذه كانت قبل أوانها إذ إن الكتيبة الثالثة وهي القسم الأكبر من الجيش لم تشترك في القتال أو ربما ضلت الطريق. وعندما وجد أردشير أن ليس أمامه سوى قوة بسيطة في الجنوب قضى عليها بسهولة تامة وطردها وبعدها قاد جيشه بسرعة لملاقاة الغزاة الشماليين، وقد كان هؤلاء مشغولين بالغنائم أيضاً وغير مستعدين للهجوم، فأحاط بهم الجيش الفارسي وكان عدده أكثر من عددهم وأطلقت عليهم السهام من كل حدب وصوب، فتجمعوا في كتلة متراصة تحت حماية التروس التي يحملونها ولم يستطيعوا الحركة أو الهجوم المعاكس، فكسرت روحهم المعنوية ولم يُبدو أي مقاومة عندما هجم الفرس عليهم وصاروا يزيحون التروس جانباً ويقتلون الرجال من تحتها. وقد نتج عن ذلك أكوام من الجثث ولم يبق من الجيش إلا القليل الذين هربوا لاجئين إلى الفلاة وإلى الجبال المحيطة، وقد كانت هذه أسوأ كارثة حلت بالجيش الروماني منذ عدة قرون.

حل اللوم في هذا الفشل على الاسكندر. فقد كان هو قائد القسم الرئيسي من الجيش الذي كان من الواجب وصوله في الوقت المعين حسب اللحظة المقررة. وكانت طريقه أقصر الطرق الثلاثة وكانت خالية من تلك العثرات التي كانت تواجه الكتيبة الشمالية في الجبال. وكان قسم عظيم من الرحلة يمر عبر الصحراء حيث كان الرومان يعلمون حق العلم أنهم ليسوا معرضين للحر والعطش فحسب بل للأمراض والجوائح المناخية. وكثير منهم أصيبوا بالديزنتاريا وتفاقمت حالتهم عند نفاذ المؤن واضطرارهم لتناول الغذاء غير المناسب، وكانوا يتوقعون الراحة في هاترا Hattra (الحرة) ولكن تلك المدينة كانت لا تزال بعيدة لاسيما وأن سرعة الجيش بعد أن حل به المرض كانت بطيئة جداً.

كان الاسكندر نفسه من ضحايا المرض، فحملوه وهو يئن في حمالة. وكانت هذه الأحوال جديدة عليه ولم يعتدها، فقد اعتاد على الرفاهية في معيشته والآن أصبح ضعيف الجسم وضعيف الروح المعنوية. لذلك لم يستطع أن يتغلب على كرهه للحرب وكان يتوق لإنهاء تلك الحملة. وكانت والدته بجانبه لا تهتم بنفسها بقدر ما اهتمت براحة ولدها وأدت دورها في تشجيعه وتقوية احتماله للصعوبات وقد أخبرته أنه ليس من واجب الإمبراطور بل من واجب الجنود احتمال محنة كهذه المحنة.

كان الإمبراطور مقتنعاً بما قالته والدته وهو رأيه الشخصي. لكن كان خجلاً من تركه الجنود وحرمانهم من وجوده بينهم. اقترحت حلاً لهذه المشكلة أن يأمر الإمبراطور الجيش بأجمعه بالانسحاب لكونه غير كفء لخوض معركة مع العدو. وعندما أعلن هذا القرار شعر الجنود أولاً بالبهجة والسرور وهم يشكرون الله لتجنيبهم الصعوبات، ولكن عندما تحسنت صحتهم بعد قليل بدؤوا يشعرون بتقريع الضمير وأنهم تركوا رفاقهم وهم في أمس الحاجة للمساعدة. فبدؤوا يسخرون من الجبن الذي أظهره الإمبراطور وزاد شعورهم حدة ضد الإمبراطور

عند وصولهم إلى أنطاكية حيث وصلت أنباء الهزيمة التي حلت بالجيش الشمالي على نهر دجلة. وقد وصف الناجون من الموت ما حل بإخوانهم من القتل والفوضى مما عجل بنهاية تلك الحملة المشؤومة، وكان الجميع يضعون اللوم على الاسكندر الذي تركهم في الساعة الحرجة فريسة سهلة للعدو.

ولكن الإمبراطور وزع عليهم عطايا سخية أرجعت شيئاً من شعبيته، وتحسن الموقف عندما أتت الأخبار أن أردشير بدلاً من متابعة نصره قد أمر بتسريح جيشه فقد كان الفرس كما كان البارثيون، يعتمدون على الاتباع في دعمهم بالجيوش فالجماعات التي تطيع دعوته للقتال لا تستطيع أن تظل وقتاً طويلاً تحت السلاح إذ إن أولئك الرجال كانوا مسؤولين عن الأراضي والمواشي. ومن جهة أخرى، فإذا سُرِّحَ الجيش فليس من السهل جمعه ولم شعثه مرة ثانية فقد كان هذا العمل من أصعب وأعقد الأمور. وهكذا افترض الاسكندر بعد سماعه تلك الأخبار أن ليس لدى الفرس في الوقت الحاضر أي نوايا عدوانية.

عادت صحة الإمبراطور لحالتها الطبيعية بسبب مناخ أنطاكية المنعش والطعام المغذي والعيش الرغيد، وحالما تحسنت حالته المعنوية استطاع إقناع نفسه أنه قد أنجز الأغراض المتوخاة من تلك الحملة. إذ من الممكن نسيان خسارة معركة واحدة. فالفرس انسحبوا إلى بلادهم وأصبحت المنطقة الحدودية آمنة وهادئة ومن الواضح أن الفرس تأثروا بحجم الجيش الروماني الكبير الذي هرع إلى القتال وتجمع بسرعة جواباً لتحدياتهم. وقد علموا أن الإمبراطورية الرومانية لديها القوة الكافية لإرسال حملات وحملات أقوى وأكبر من هذه الحملة حتى تستطيع أن تجبرهم على الرضا والرضوخ لإرادتها. ولم يكن أردشير قد استقرت أحواله في الداخل بحيث يستطيع إعادة الكرة. ومرت سنوات طويلة لم يُقَدَّر للاسكندر رؤية نهايتها قبل أن يجدد الفرس مطالبتهم بالأقاليم التي خسروها منذ عهد داريوس.

عاد الاسكندر إلى روما وحيته الجماهير بسرور لا يقل عن حزنها يوم مفارقته. وكان بين الذين هتفوا له وحيوه أحسن تحية زوجات الجنود الذين رجع بهم من الصحراء ونجوا من الموت، وقد زاد شعبيته بالهبات والعطايا السخية والألعاب في الملاعب والمدرجات وفي الروايات التمثيلية الهزلية وما شابهها التي كانت تقام على المسرح.

هدأ غضب أمه التي لم تعتد على مثل هذه المصاريف بإنشاء مؤسسة للشباب تحمل اسمها وتدعى «أولاد وبنات (ماميه)» وكان ذروة الاحتفالات موكب من مواكب النصر توجه إلى معبد الإله جوبتر على تلة الكابيتول ليحتفل بنهاية الحرب الفارسية. وكان الإمبراطور يكره الرسميات فأصر متحدياً كل التقاليد على السير ماشياً على قدميه بينما تبعته عربته التي كان يجرها أربعة من الفيلة رمزاً لبلاد الفرس المهزومة، ولكن الجماهير المتحمسة رفعته على

الأكتاف وكانت تلك الجماهير تهتف: «إن روما والصالح العام في أمان ما دام الاسكندر حياً».

لقد كان الاسكندر يمثل السلام والاستقرار في عيون الجماهير ولكن الجنود الذين شاركوه في الصحراء وفيما بين النهرين اشتركوا في الاحتفالات بفتور ملاحظ.

ظهرت المتاعب من جديد عندما وصلت استغاثات الحكام والولاة الذين يحكمون الولايات الواقعة بين الدانوب العلوي والراين العلوي من جراء غزوة قامت بها بعض القبائل الجرمانية. وقد طلب هؤلاء الولاة والحكام النجدة من روما لدحر هؤلاء الغزاة. وكانت المنطقة نفسها التي ظهرت فيها المتاعب زمن كاراكلا إلا أن الانتصارات التي أحرزها كاراكلا والإجراءات التي اتخذها لتقوية الدفاع نجحت في إرجاع النظام وقد دامت تلك الحلول التي فرضها سنين طويلة. ولكن اللوم في وقوع الخطر الراهن يعود إلى الحروب في الشرق، فانتهز رجال القبائل الفرصة وهاجموا تلك الحاميات، ومن الواضح أن أسباباً أخرى كانت تكمن وراء الهجوم المفاجئ على الحدود الشمالية. فلم تكن هذه الغارات مجرد غارات متقطعة مشتتة يوحي بها حب النهب والسلب، فالهجوم الجديد كان عبارة عن غزوات وتحركات عامة شاملة للسكان. ولم تُذكر حوادث ذات شأن حدثت في أواسط مناطق الجرمان في ذلك الوقت، ولا يُعلم ما هو الضغط الذي أجبر الجرمان للهجوم على منطقة الراين بعد أن كانوا حتى ذلك الزمن قانعين بالعيش في أوطانهم، ولم يكن همهم اقتطاع أجزاء من الإمبراطورية الرومانية العتيدة. وكانت هذه الدوافع والحوافز قد قدر لها أن تتزايد في زخمها وحدتها طوال بقية هذا القرن، وبعد أن عادت للظهور في القرون التالية كانت سبباً في سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية بأجمعها.

لم يشأ الاسكندر الاشتراك في حملات جديدة في الشمال بعد أن قاسى ما قاسى في حربه مع الفرس، ولكن الخطر كان يهدد الإمبراطورية في نقطة في غاية الحساسية وكان الخطر قريباً من إيطاليا نفسها، وكان لا يزال هنالك أشخاص أحياء يرزقون من الذين شهدوا في زمن ماركوس اوريليوس هجوماً مماثلاً وصل إلى شواطئ بحر الادرياتيك قبل صده. وكان هنالك سبب آخر يدعو الاسكندر للتدخل وهو التململ وعدم الصبر الذي ظهر في الفرق العسكرية التي سُحبت حديثاً من الراين للاشتراك في الحرب ضد الفرس. وطبقاً للسياسة التي اتبعها سبتموس، فقد كان الجنود الجرمان يتبادلون الزواج مع سكان الحدود الشمالية وتركوا معظمهم زوجاتهم وأطفالهم هناك، وقد أثار مصير هؤلاء الزوجات والأطفال قلق الجنود الأزواج والآباء، فأصبحوا يسألون بغضب لماذا ظلوا مجتمعين في الشرق عندما كانت أسرهم تنتظرهم وقد انتهت الحرب الفارسية؟ وطلبوا أن ينتقلوا إلى بيوتهم وأسرهم لحمايتها.

لم يجرؤ الاسكندر على رفض تلك الطلبات. فاستدعى الجيوش الموجودة في سوريا عدا بعض الحاميات الأساسية، وغادر روما في أول موسم القتال عام 234م متوجهاً إلى ميادين القتال الجديدة وعلى الرغم من كرهه للحروب وما ينتج عنها، إلا أنه عمل بنشاط وهمة وسافر بسرعة فائقة إلى نهر الراين حيث وصل إلى موجونتيكوم Moguntiacum والتي تدعى الآن مينز Mainz وبنى جسراً من القوارب لقطع النهر واتجهت جنوده إلى الشمال لمتابعة الحرب في أراضي الأعداء، وهكذا وجدت القبائل الجرمانية الغزاة أنها أصبحت مغزوة بعد أن كانت غازية وزاد يأسهم وتعاستهم عندما رأوا الأسلحة غير المألوفة التي استعملت لمهاجمتهم. فقد اشتملت الجيوش الرومانية على كتائب تطوعت من الشرق وفيها كثير من البارثيين الذين فضلوا خدمة روما على خدمة أردشير وكان هؤلاء الرجال من الرماة الماهرين القادرين على إصابة رؤوس الجرمان وأجسامهم الطويلة من مسافة بعيدة وكان هنالك رماة الحِراب من إفريقية الذين كان تصويبهم الدقيق يحرز النتيجة نفسها في نفوس الجرمان الذين فزعوا من هذه الأسلحة فقد اعتادوا على الحرب في كتل متراصة فأصبحوا بذلك هدفاً سهلاً لقذف السهام والحراب.

وعندها أرسل الجرمان رسلاً يطلبون السلام فقابلهم الاسكندر بروح التشجيع، فقد كان من طبيعته تفضيل المفاوضات على الحرب، ووافق مستشاروه على ذلك وكانوا في شوق لإحراز السلم في هذه المنطقة، حتى يستطيعوا نقل الجنود إلى مناطق أخرى على الحدود ولاسيما أعالي الدانوب التي بدأت فيها المشكلات. وكانت والدته أيضاً تعطف على اتباع سياسة المصالحة، وهي تأمل أن تقضي هذه السياسة على الحرب وتمكنهما كليهما من الرجوع إلى روما لاستئناف أعمالهم الجدية المفيدة هناك. وفي مقابلته للزعماء الجرمان عرض عليهم مبلغاً سخياً من المال كثمن لسلوكهم الحسن فقبلوا شروطه. وكان هذا العمل شديد الشبه بأعمال كاراكلا الذي كان يتبع روح السياسة الرومانية وهي مزج القوة بالعقل في معاملة الأعداء. ومع ذلك فعندما أُعلنت شروط الصلح حل الغضب في صفوف الجيش الذين كانوا يعتبرون تلك البلاد وطناً لهم، وكانوا قد ابتهجوا بتلك الفرصة السانحة التي أرجعتهم إلى زوجاتهم وأولادهم. وتطرق الخوف إلى نفوسهم بأن الوضع سوف يختلف عندما يسود الهدوء والاستقرار في تلك المنطقة، عندها سوف يعمد الإمبراطور إلى نقلهم إلى الشرق. وقد زادت نقمتهم عندما عقدوا مقارنة بين السخاء في العطاء للقبائل الجرمانية وبين الشح والاقتصاد الذي ظهر بالنسبة للجنود الرومان بحجة حاجة الإمبراطورية للمال لتغطية نفقات نقل الجنود وتقوية روحهم المعنوية للقيام بالحرب ضد الفرس، ولم يكن الجنود يعرفون ولم يكونوا يريدون أن يعرفوا كم تتكلف الخزينة من أموال وكم سيتكلف دافعو الضرائب من تضحيات. وعندما كانت تخفض تعويضاتهم وتقل الهبات المدفوعة لهم كانوا يضعون اللوم على (ماميه) وعلى شحها وطمعها.

وكانوا يهزؤون بالإمبراطور لاعتماده عليها. وكما كان كاراكلا قد اعتاد على ترك الإدارة المالية بيد أمه جوليا إلا أنه لم يجرؤ أحد على انتقاده كما كانوا يفعلون بالاسكندر. وكانوا يقولون إنه لا يزال ملزماً بارتداء المئزر الذي تُلبسه له والدته (كطفل).

وكان بين أولئك الذين شجبوا ورفضوا شروط السلم أحد الضباط المدعو مكسيمنوس Maximinus وهو رجل عملاق كبير الجسم قوي البنيان يمتاز بقوة عينيه. بدأ حياته كولد من الرعاة في مقاطعة تراكيه والتحق بفرقة الفرسان في الجيش الروماني، حيث ارتقى بسرعة على الرغم من افتقاده إلى الثقافة ثم نقل إلى الخدمة في الجيش الروماني، ولكنه أصبح تريبيوناً عسكرياً ثم ارتقى ليصبح قائد فرقة. وفي أثناء الحرب مع الفرس كان في مابين النهرين وكُلِّفَ بتنسيق حركات جميع الفرق في تلك الولاية. وقد التهب حماسه بسبب ارتقائه إلى أعلى المناصب، وعندما أصبح ابنه في سن الزواج حاول أن يخطب له أخت الإمبراطور ثيوكليا Theoclia وقد دُهِشَ الإمبراطور ذو العقل المتفتح من هذا الطلب فأرسل الإمبراطور رسالة إلى أمه يخبرها عن هذا الطلب ويعبر عن شكه فيما إذا كان ابن تراكيه هذا مهما بلغ مقدار وسامته وثقافته، يصلح ليكون زوجاً لثيوكليا تلك الفتاة ذات الذوق والثقافة الرفيعة. ولم تتردد (ماميه) أبداً، فقد سارعت إلى تزويج ابنتها من شاب من مرتبة مجلس الشيوخ ولكن مكسيمينيوس لم ينس ولم يغفر هذه الإهانة.

وكانت وظيفته في الجيش تنحصر في جمع وتدريب المتطوعين الجدد اللازمين للحملة، وكان هذا المركز يقدم له فرصة سانحة انتهزها للحصول على الحظوة والنفوذ بين الرجال المتطوعين الذين كانوا تحت مسؤوليته، وقد أدهشهم بأعمالهم البطولية وقوته وكان يقاسمهم السراء والضراء فأصبحوا يحترمونه ويخلصون له إلى حد العبادة، لاسيما أولئك الذين قدموا من ولايات تقع على الدانوب الأسفل من أمكنة قريبة من بلده. وعندما كانوا يقارنون جسمه بجسم الإمبراطور الضعيف ثبت لهم أن هذا القائد أجدر بلقب الإمبراطور من الإمبراطور نفسه، وقد عبروا عن أفكارهم أمام الجنود الآخرين بحرية وكانوا يصبون جام غضبهم وهزئهم على (ماميه) لتدخلها في أعمال المجلس الإمبراطوري، وكانت أحاديثهم تنتقل من حلقة إلى حلقة مما أطلق الألسنة التي كانت خرساء من عقالها لاسيما الموتورين، واشترك معهم رجال من وحدات أخرى حيث كان بعضهم يشكو من ضعف الإمبراطور عند مفاوضاته مع الجرمان كما أن غيرهم بدأ يتذكر موقف الإمبراطور في الحرب الأخيرة مع الفرس في مابين النهرين وفي الصحراء.

كان المتطوعون معسكرين على بعد عدة أميال من موجونيتاكوم Mogunitacum بينما كانت القيادة الإمبراطورية واقعة في ظاهر المدينة. والحقيقة أن الإمبراطور لم ينتبه إلى تلك الأقاويل والخطابات والتوتر المتزايد وتمت

المؤامرة سراً حتى أتى ذلك اليوم عندما اجتمع المتطوعون في عرض عسكري ومعهم عدد من الجنود المدججين بالسلاح، وحالما وصل مكسيموس لاستلام القيادة تقدم الكثيرون لمقابلته وتحيته ورمى أحدهم عباءة أرجوانية فوق كتفيه وبالوقت نفسه دوت أصوات الهتافات والاستحسان وصرخ الجميع منادياً به إمبراطوراً. عندها تظاهر بالمقاومة ونزع العباءة ولكن وعلى الرغم من قوته المعروفة استطاع الجنود إرجاع العباءة الأمر الذي جعله يخضع لمشيئتهم وأعلن عزل الاسكندر وأنه أصبح خليفته الشرعي.

كان العمل السريع واجباً لتنفيذ هذا الانقلاب وجعله أمراً واقعاً فالذين قاموا به لم يكونوا إلا شرذمة صغيرة من الجيش متمركزة على نهر الراين، حيث كانت شعبية الاسكندر لا تزال كبيرة يحسب حسابها فقرر الثائرون أخذ الاسكندر على حين غرة قبل أن تهرع الفرق الأخرى لمساعدته، وهكذا شرعوا في السير حالاً وعلى رأسهم إمبراطورهم الجديد قاصدين موجونتيكونم Moguntiacum ولكن أخبارهم سبقتهم، فقد أسرع رجل من المخلصين للاسكندر وامتطى حصاناً وذهب لإخبار الاسكندر.

عند وصول هذا الرجل توجه رأساً إلى خيمة الإمبراطور ولم يخبر أحداً في طريقه حتى لا يُعرف شيء عن مهمته. وهنا هاج الاسكندر وماج واتهم مكسيموس بتدبير تلك المؤامرة بعد أن استغل بساطة وسذاجة المتطوعين. وعندما سمعت أمه صرخاته أسرعت من خيمتها للالتحاق به وبعد أن هدأت من روعه ورجع صوته إليه، كشف لها ما أخبره الرسول من تمرد مكسيموس. وفي هذا الوقت كان جمع غفير من حاشيته قد تجمع للمراقبة وللسماع وقد انتابتهم الدهشة. خاطبهم وناشدهم مساعدته وتوسل إليهم أن يحموه، ووعدهم أن يجزل لهم العطاء ويستمع لمظالمهم. وكان معظمهم من الذين خدموه بإخلاص مدة الثلاثة عشر عاماً التي حكمها وكانوا يحبونه ولذلك أكدوا له تأييدهم وطمأنوه.

كان الوقت قريباً من الغسق وحاول الجميع تقوية الدفاع عن الإمبراطور بجلب إمدادات لدعم الحرس. وهبط الليل دون حضور مكسيموس. قضى المدافعون وقتهم ساعة بعد ساعة بالحديث. ولكن الجنود الذين جلبوا من المعسكرات أخذوا يتذكرون ما كان يقال هناك من الانتقادات والشكاوى ضد الاسكندر فبدأت الشكاوى القديمة تظهر من جديد وكان كثير منهم يقدرون صفات مكسيموس العسكرية وهكذا فترت حماسة المدافعين، وبدأت تلك الانفعالات التي أثارها الاسكندر بمناشدته ورجائه بالهبوط.

وفي هذه الأثناء خشي مكسيموس من مهاجمة الإمبراطور ليلاً فانتظر حتى الصباح، وعند ظهور أول خيط من خيوط الفجر تقدم، ورأى الحرس سحابة من الغبار في الأفق فأخبروا الإمبراطور. سرعان ما بدأت الهتافات تظهر وتتعاظم حالما اقترب مكسيموس. ولم يتقدم للدفاع عن الإمبراطور إلا القليل. وذهب قسم منهم إلى خيمة الاسكندر ليخبروه أنهم لن يقاتلوا حتى يمنحهم ما يطلبونه بشكل

كامل. ففي الليلة السابقة كان قد أخبرهم أنه مستعد لرفع الظلم عن المظلوم وأنه سوف يمنحهم أي طلب يريدونه ويطلبونه. وعندها تقدموا إليه بقائمة تحتوي أسماء بعض القادة الذين كانوا يكرهونهم لأسباب شخصية وطلبوا من الإمبراطور إعدام هؤلاء وكان معظمهم من أصدقائه المخلصين له.

عندها أصيب الاسكندر باليأس فهرع بنفسه إلى الاستحكامات ليتوسل إلى الحامية ولكن أتباع مكسيموس كانوا قد سبقوه. وحالما لمحوه بدأوا في شتمه بألفاظ بذيئة وطلبوا من الجنود رميه إليهم حتى يختاروا إمبراطوراً رجلاً بدلاً من الإمبراطور الطفل الألعوبة بيد أمه. حاول الاسكندر الكلام ولكن لم يسمع صوته أحد، لذلك نزل هارباً إلى خيمته وكان يسمع الهتافات تقول: عاش الإمبراطور مكسيموس.

كانت والدته في انتظاره وهي تصغي للضجة في الخارج وترتجف من نتائجها. وما إن دخل الاسكندر حتى بادرت للتعلق به. وضمته إلى صدرها فالتصق بها وهو يبكي بعد أن خانته أعصابه. وبدأ في لومها والدموع تنهمر من عينيه لأنها هي التي قادته إلى حتفه.

ظلا متمسكين أحدهما بالآخر يندبان حظهما وحاولت تهدئته عبثاً وعندها حضر أحد التريبونات العسكريين ومعه بضعة جنود لتنفيذ حكم الإعدام به، فارتعدت فرائص الاسكندر لدى رؤيتهم وصرخ ولكنهم أمسكوا به وطعنوه طعنة أودت بحياته. أما (ماميه) فقد وقفت هادئة حتى تركوا جسم ولدها الميت وانتقلوا إليها وقتلوها أيضاً. وكان تاريخ هذا الحادث 10 آذار عام 234. وهكذا مات الاسكندر وهو في السادسة والعشرين من العمر بعد أن حكم ثلاثة عشر عاماً وكانت (ماميه) في الأربعين من العمر وكانت آخر الأميرات السوريات اللواتي حكمن الإمبراطورية الرومانية فعلاً وليس اسماً.